حقيقة الحب عند الصوفية

للأستاذ محمد على الطعمى

يحتاج العبد إلى محبة الله ورسوله ، وليس هنالك شيء يعدل هذا الحب الذى لو صح واختلط بالمشاعر وامتزج بالقلب لأصبح العبد ربانيا يقول للشيء كن فيكون .

ومحبة الله ورسوله ليست دعوى بأطايب الحديث وعذب الكلام وجمال التعبير وإنما هى صفاء أى صفاء ينبع من وجدان حى متوثب ملهم ، فتنعكس عليه إشراقات وفتوحات من لدن حكيم خبير .

ومفهوم جداً أن محبة الله مرتبطة بمحبة رسوله — ومحبة رسوله مرتبطة بمحبة الله . لا تنفصم إحداهما عن الأخرى .

قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان فى قلبه ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر ، كما يكره أن يقذف فى النار » .. فنى الآية والحديث أضيفت محبة الرسول إلى محبة الله ، وهذا نوع من أنواع الكمال لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وآية هذا الحب أن يتجنب المسلم مزالق الهوى ، ومواطن الغرور ، ووسوسة الشيطان . ثم ينخرط قدما فى طهارة بدنية وروحية ، ويسلك برامج الدين الذى خططته الشريعة الغراء - فى إطارها المقدس الكريم ، وبذلك ينال الطالب مرتبة الحب

والغفران ، قال تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

وللصوفية فى الحب ألوان وميادين ، فهم يرونه سكرا ليسيطر على النفس فلا تتبع الهوى - ولا تجنح إلى معصية ، ويرونه انتعاشا للقلب فيتعلق بذات الله - فلا يفيق ولا يستيقظ إلا على آهات وأذكار ودموع .

سئل الأستاذ عبد القادر الجيلانى عن المحبة فقال « هى تشويش فى القلوب يقع من المحبوب فتصير الدنيا عليه كحلقة خاتم - والحب سكر لا صحو معه (وسئل رضى الله عنه عن المحبين فأجاب) والمحبون سكارى لا يصحون إلا بمشاهدة محبوبهم . مرض لا يشفون إلا بملاحظة مطلوبهم ، حيارى لا يأنسون بغير مولاهم ولا يلهجون إلا بذكره ثم أنشد يقول :

وطا وردنا ماء مدين نستقى ... على ظمأ منا إلى منهل النجوى
نزلنا على حى كرام ضيوفهم ... مقدسة لا هند فيها ولا علوى
ولاحت لنا نار على البعد أضرمت ... وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
سقانا فحيانا فأحيا نفوسنا ... وأسكرنا من خمر إجلاله عفوا
مدام عليها العهد ألا يذوقها ... سوى مخلص فى الحب خال من الدعوى
مزجنا بها التقوى لتقوى قلوبنا ... فيا من رأى خمرا يمازجها التقوى؟؟
فهمنا فهمنا فى مدامة وجدنا ... وسرنا نجر الزيل من سكرنا زهوا
شربنا فبحنا فاستبيحت دماؤنا ... أيقتل بواح بسر الذى يهوى ؟؟
وما السر فى الأحرار إلا وديعة ... ولكن إذا رق المدام فمن يقوى؟؟

ثم ما جزاء المحبين الذين أخلصوا ، والطائفين الذين أحسنوا ؟

لا شك أن جزاءهم الرضا من الله تعالى ، وأن يمنحهم فراديس الجنان ليكونوا فى صحبة الرسول والنبيين عليهم الصلاة والسلام .

حكى القرطبى فى تفسيره عن الثعلبى « أن الرسول عليه السلام رأى يوما خادمه « ثوبان » مصفر الوجه هزيل الجسم ، فقال له يا « ثوبان » ما غير لونك ؟؟ فقال

يارسول الله ، مالى ضر ولا وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت يوم القيامة وأخاف ألا أراك هناك ، لأنى علمت أنك ترفع مع النبيين ، وإنى إن دخلت الجنة أكون فى منزلة أقل ، وأنا من شدة حبى لك ، لا أستطيع فراقك لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فنزل قول الله تعالى « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

إن مرتبة الحب الخالص الصافى لله وللرسول قمينة بأن تجعل المؤمن الصادق فى معية النبى يوم القيامة .

وفقنا الله تعالى للعمل الصالح لكى نذوق ثمرة هذا الحب وإنه لشرف عظيم .